محمود باشا سامي البارودي

منذ اربع وعشرين سنة كان صاحب الترجمة كما تُرى صورته في هذه الصفحة في السطور في عنفوان القوة ومتسع الآمال كان ناظرًا للجهادية والاوقاف مرموقًا بعين العناية من مولاهُ والاكرام من اخوانهِ وزيرًا بين الوزراء وشاعرًا بين الشعراء. زرناهُ حينئذٍ فرأينا فيهِ آمالاً اوسع من رحاب مصر وكانت تلك الآمال ملكًا مشاعًا يشترك فيها المالك والمملوك والغني والصعلوك منشأها الميل الفطري الى الحرية في القول والعمل والتغيير الاجنبي للتطويح في اعمال تدعو الى تشديد الخناق والطمع في ما بقي في البلاد من موارد الارزاق والغرور والتحمس المتولدان من الجهل والسخافة فتجمَّعت الاسباب وولدت الثورة العرابية وما جرَّت اليهِ وجُعل صاحب الترجمة رئيسًا للنظار في بدايتها ثم استعفى في اثنائها وُعدَّ من زعمائها ونفي معهم

وهو من متولدي مصر لا من بنائها فان جدهُ جركسي الاصل. ولد في العاصمة ودرس في المدرسة الحربية واتقن اللغة التركية والفارسية مع العربية وتدرَّج في المناصب الحربية الى

ان كانت حرب الروس مع الدولة العلية فأرسل اليها وكوفئ برتبة اللواء وعمّا قالهُ في تلك الحرب (روتهُ لهُ جريدة الجوائب المصرية)

ادور بعيني لا ارى غير امةٍ ... من الروس بالبلقان يخطئها العدُّ
جوائش على هام الجبال لغارة ... يطير بها ضوءُ الصباح اذا يبدو
اذا نحن سرنا صرّح الشر باسمهِ ... وصاح القنا بالموت واستقتل الجندُ

ولما عاد الى مصر جُعل مديرًا للشرقية وتولى نظارة الاوقاف والمعارف في وزارة رياض باشا الاولى وكان تعرّفنا بهِ حينئذٍ واعيد ناظرًا للحربية في وزارة شريف باشا ثم جعل رئيسًا للنظار وناظرًا للداخلية وابتدأت الثورة حينئذٍ وحدثت مذبحة الاسكندرية فأسندت رئاسة النظار الى راغب باشا وتشكلت وزارة جديدة لم يكن صاحب الترجمة فيها ولم يُعد الى خطط الحكومة لكنهُ أُخذ مع غيرهِ من زعماء الثورة وحوكم ونفي مع مَن نفي ثم عفي عنهُ وعاد الى القطر ليموت فيهِ فقضى الى رحمة ربهِ يوم الاثنين في الثاني عشر من الشهر ودفن بما يليق من الاكرام بعد ان خلّد لنفسهِ ذكرًا لا تنالهُ مجالس الاحكام ولا يسمع فيهِ لقضاة التحقيق كلام . فانهُ كان من امراء القريض وارباب القرائح فنظم القصائد الحسان . ومن بدائع شعرهِ قولهُ في منفاهُ (وقد ذكرهُ محمد افندي امام العبد في مجلة الثريا قبيل وفاتهِ)

محا البين ما ابقت عيون المها مني ... فشبتُ ولم اقضِ اللبانة من سني
عناءٌ ويأسٌ واشتياقٌ وغربةٌ ... ألا شدَّ ما القاهُ في الدهر من غبنِ
فان الكرى فارقت فيهِ جفونهُ ... فرُبَّ جفونٍ لم تذق طعمهُ جفني
بعثت بهِ يوم النوى اثر لحظة ... فاوقعهُ المقدار في شرك الحزنِ
فهل من فتى في الدهر يجمع بيننا ... فليس كلانا عن اخيهِ بمستغنِ
ولما وقفنا للوداع واسبلت ... مدامعنا فوق الترائب كالمزنِ
اهبتُ بصبري ان يعود فهزّني ... وناديت حلمي ان يثوب فلم يغنِ
وما هي الاَّ خطرة ثم اقلعت ... بنا عن شطوط الحي اجنحة السفنِ
فكم مهجة من زفرة الوجد في لظى ... وكم مقلة من غزرة الدمع في دجنِ
وما كنت جرّبت النوى قبل هذهِ ... فلما دهتني كدت اقضي من الحزنِ
ولكنني راجعت حلمي وردني ... الى الحزم رأي لا يحوم على افنِ
ولولا بنيّاتٌ وشيب عواطلٌ ... لما قرعت نفسي على فائت سنِّ
فيا قلب صبرًا ان جزعت فربما ... جرت سنحًا طير الحوادث باليمنِ

فقد تورق الاغصان بعد ذبولها ويبدو ضياء البدر بعد أفوله
واي حسام لم تصبه كبوة ولمذهم رمح لا يقل من اطعنه
ومن شاغب الايام لان مريره واسلمه طول المراس الى الوهن
وما المرء في دنياه الا كسالك سلك لا تخلو من السهل والحزن
فان تكن الدنيا تولت بخيرها فاهون بدنيا لا تدوم على فن
تحملت خوف المن كل رزيئة وحمل رزايا الدهر احلى من المن
وعاشرت اخدانا فلما بلوتهم تمنيت أن ابقى وحيدا بلا خدن
اذا عرف المرء القلوب وما انطوت عليه من البغضاء عاش على ضغن
يرى بصري من لا أود لقاءه وتسمع اذني ما تعاف من اللحن

وقوله في الحماسة معارضا ابا تمام (رواه لنا السيد البكري)

واني من القوم الذين سيوفهم لها في حواشي كل داجية فجر
اذا استل منهم سيد غرب سيفه تفزعت الافلاك والتفت الدهر

وقوله في الفخر (وقد ذُكر في كتاب النخبات العربية)

ولي شيمة تأبى الدنايا وعزمة تردُّ لهامَ الجيش وهو يثور
همامة نفس ليس يثني ركابها رواح على طول المدى وبكور
معودة ان لا تكفَّ عنانها عن الجد الا ان تتمَّ امور
لها من وراء الغيب اذن سميعة وعين ترى ما لا يراه بصير
وفيت بما ظنَّ الكرام فراسةً بامري وشلي بالوفاء جدير
واصبحت محسود الجلال كانني على كل نفس في الزمان امير
اذا صلت كفَّ الدهر من غلوائه وان قلتُ غصَّت بالقلوب صدور

ولعله قال ذلك قبل حبوط المساعي وقوله

وقد تنطق الآثار وفي صوامتٍ ويثني بريَّاه على الوابل الزهر

وقوله في شكوى الزمان

حمل الزمان عليَّ ما لم احتمل ان الاماثل عرضة الحدثان
صادقت بعض القوم حتى خانني وحفظت منهُ مغيبهُ فرماني
فليجر بعد كما اراد بنفسه ان الشقيَّ مطية الشيطان

وسيجتمع شعراء مصر على ضريحه يوم الاربعين من وفاته وينشدون ما نظموه في رثائه وتأبينه